الطبيعة التاريخية لحركة انتشار

الإسلام في نظر الشيخ محمد الغزالي

إبراهيم نويري*

تمهيد

ترتبط الرّسالات والدّعوات ارتباطا وثيقا بالمنهج الذي تعرض به نفسها على الخلائق وتغريهم باعتناق حقائقها وتمثل مبادئها، ومن ثَمّ نرى الكثير من الأذهان يرتبط في وعيها وفي عقلها الباطن وجْهاَ صورةِ تلك الرسالات والدعوات في تصور واحد لا يكاد ينفصل، وجه يمثل جوهرها ومثلها ومقاصدها،وجه يمثل منهجها الإعلامي وأساليبها في الامتداد الإنساني والجغرافي وتعاملها مع الغير خارج محيطها الاعتقادي والثقافي، وبما أن هذا الارتباط الذهني هو ارتباط بين الموضوع والشكل أو بين الحقيقة والطريقة، فإنه كثيرا ما يكون عقبة كؤودا في سير الكثير من الدعوات، خاصة عندما يكون معتنقوها وممثلوها الرسميون دون مستواها، أو عندما يكونون صورة شائهة زرية لها، فهم حينئذٍ عليها لا لها، وهم بتلك المواصفات يلحقون بها أضرارا مؤكدة حتى وإن ظنوا أو ادعوا أنهم في خدمتها.

وليس من الغلو أو التجني على الواقع في شيء إذا قلت: عن الفرق بين حقيقة الدين في جوهره السماوي ونصاعة مُثله المجردة، وبين صورته عندما يختلط بأهواء البشر وتأويلاتهم المحرفة واستغلالاتهم الأرضية لحقائقه ومقاصده، يشبه الفرق بين ماء المطر عندما يكون صافيا رائقا في المزن، أي في طبيعته الأصلية، وصورته عندما يهمي على الأرض ويختلط بأتربتها وشوائبها وأعشابها. ولو كان الناس جميعا يدركون الفرق بين حقيقة الدين –كما هي في صحائف الوحي– وبين صورته عند التأويل والتطبيق أو حين تظهر في سلوك أفراد وجماعات لكان في ذلك بعض العزاء الذي يخفف الأحزان عن قلوب دعاة رسالات السماء، لكن المشكلة أن ذلك لا يتأتى باطراد، بل إن التداخل بين الصورتين هو الأغلب الأعم في كل وقت وحين... ولما كانت دعوة الإسلام العالمية الخالدة قد عرضت لها –كمعظم الدعوات– هذه العقبة في مسيرتها

* طالب دراسات عليا بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بالجزائر؛ وله أطروحة جامعية بعنوان الشيخ محمد الغزالي: مفكراً وداعية.

التاريخية فإن الشيخ الغزالي قد اهتم بهذا الموضوع كما يستبين ذلك من نتاجه الفكري والدعوي؛ ومن بين الشبهات التي لها صلة وطيدة بالعقبة التي أشرنا إليها شبهة انتشار الإسلام بالقوة والسطو والعنف لا بالحجة والإقناع والقدوة!... لذلك فقد ارتأينا أن نتصدى هنا لدراسة هذا الموضوع وبحثه عند الغزالي الداعية، لما له من مكانة ضمن عطاء الشيخ في ميادين دراساته الدعوية، ولقيمة الرؤية التي يقدمها عن طبيعة انتشار الدعوة الإسلامية وخصائصها، ليس فقط من جهة إنصاف الواقع التاريخي لهذه الدعوة والانتصار للحقيقة العلمية المقررة في سياقات النصوص المعصومة، وإنما أيضا من جهة أهمية هذا الموضوع على صعيد إعادة تأصيل مناهج الدعوة وضبط أساليب التعامل مع الواقع المحلي والعالمي، وكيفية الإفادة العملية من المتغيرات والمستجدات بما يخدم الدعوة الإسلامية في مرحلتها الراهنة والمستقبلية؛ وربما كان من نافلة القول في هذا الخصوص تأكيد إمكانية الاستفادة من ثروة الفقه الإسلامي العلمية وأهمية هذه الاستفادة في تحديد أسس التعامل مع الآخرين وأدواته من منطلق هدايات الإسلام ومقاصده الإنسانية الخالدة، والتطلع لصياغة نظرية إسلامية في العلاقات الدولية تحسم الخلافات النظرية الموروثة وتُمكّن لدعوة الإسلام بين شعوب العالم المعاصر وجماعاته وأممه، وتسهم في فتح آفاق جديدة لانسياب هذه الدعوة في كل مكان.

أولا: أصول اهتمام الغزالي بهذه القضية

اهتم الشيخ الغزالي بموضوع الدعوة إلى الله فهما ودراية وأداء وتفاعلا مع رسالتها ومنهجها وتاريخها، فمنحه ذلك إخلاصا ومقدرة في الذود عن حياضها والدفاع عن شؤونها وتبديد الشبهات المثارة في طريقها، وهو يحب أن ينسب لهذه الدعوة أكثر من أي شيء آخر، لأنه يعتقد بأن الدعوة إلى الله أخطر وظيفة على ظهر الأرض، أليست وظيفة الأنبياء والرسل والصالحين الأخيار؟ لذلك لم يتوان في الانتصار لحقائقها وتجلية فطرتها وقسماتها الثابتة وفق ما رسمته آيات الوحي الخاتم والسيرة النبوية الشريفة ومعالم تطبيقاتها التاريخية المثلى... فلا غرو بعد ذلك إن وجدنا الشيخ الغزالي يخصص مساحة واسعة من فكره وجهوده الإعلامية والدعوية ونتاجه العلمي لتوضيح الطبيعة الحقيقية لانتشار الإسلام وانسياب دعوته على الأرض، وقد تصدى الشيخ لجبهتين أثارتا لغطا وشبهات عن طبيعة هذا الانتشار هما:

أ- جبهة بعض المسلمين الذين ادعوا بأن الإسلام دين سيف لا دعوة، وأن الأصل إنما هو بمبادأة الأعداء بالقتال، لأن مبدأ لجهاد له مقتضيات أخرى لا علاقة لها بالدعوة إلى الإسلام وإشاعة السلام في الأرض وتوطيد الحرية وتمكين الشعوب من اختيار العقائد التي تطمئن إليها...إلخ.

ب- جبهة المستشرقين والمبشرين الذين اتهموا الإسلام بأنه دين عنف، وأن دعوته اعتمدت على القوة والاصطدامات العسكرية في بلوغ أهدافها، وأن هناك ظروفاَ دولية مكنت لانتشار الإسلام مثل الضعف والانقسام الذي عرا الأجهزة الداخلية للإمبراطورية الرومانية والفوضى العارمة التي سادت الدولة الفارسية، وليس مرد الانتشار السريع للإسلام طبيعة ذاتية فطرية في دعوته وتعاليمه...إلخ.

ثانيا: مناقشة الغزالي للجبهة الأولى

لم يغمض الشيخ الغزالي طرفه عن بعض آراء المسلمين التي لم تع –برأيه- رسالة الجهاد في الإسلام ولم تتشرب طبيعة الإسلام في الانتشار والإفصاح عن تعاليمه ومثله ومبادئه، بل سعى لبذل الكثير من الجهد بغية أن تفهم هذه القضية على وجهها الصحيح؛ ولعل معالم بعض ذلك الجهد تتضح من خلال النقاط الآتية:

1- **السلام هو الأصل في دعوة الإسلام:** يعتقد الشيخ الغزالي بناء على فقهه بالقرآن والسيرة النبوية بأن السلام أصل من أصول الدعوة في الإسلام، بل إن الإسلام والسلام مشتقان من دلالة واحدة تركز لحقيقة هذا الدين ولطبيعته المرسومة في التعامل مع بني البشر، ومن ثمَّ فقد رفض الشيخ الآراء التي تناقض هذا التوجه في الفقه والاستيعاب والحركة، فهناك الكثير من علماء الدين وقراء القرآن "من لم يتذوق أدب الحوار الطويل مع المخالفين، فتجاوز الآيات التي أربت على المائة وزعم أن الإسلام استعمل من البداية العصا الغليظة في التعامل مع خصومه، وأنه إذا كان قد هادنهم يوما فلضرورات موقوتة! ثم شرع يجتاحهم بعد ذلك دون هوادة... قرأت لنفر منهم كلاما طويلا في أن الإسلام دين هجومي يضع خططه للحرب لا للسلم، وشعرت بالغيظ لتحريف الكلم عن مواضعه من ناحية، ولتناول الوقائع دون أدنى وعي بملابساتها من

ناحية أخرى".[1] ولا شك أن تأسف الغزالي لهذا الفهم المجانب للصواب له في واقع الأمر ما يبرره، إذ كيف يرضى أتباع الرسالة الخاتمة في وقت تبرجت فيها الدعوات وظهرت كل الأفكار والإيديولوجيات على حقيقتها بأن لا تعرف الطبيعة الحقيقة الفطرية لدينهم؟ "فنحن المسلمين نود لو يملأ السلام أرجاء الأرض ويستغرق أعمار البشر وأنى لنا ذلك؟ في كل صلاة نهتف من أعماقنا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وفي كل صلاة نتلفت يمينا ويسارا لنوزع السلام حولينا، ومع ذلك لم نفلت من شباك الفتانين والجبارين فخضنا الحروب كارهين مكرهين ولا نزال كذلك حتى يوم الناس هذا فماذا نصنع؟".[2]

2- **حقيقة الجهاد في الإسلام:** يرى الشيخ الغزالي أن الجهاد في الإسلام وسيلة لا غاية، وأنه يوم تسود الحريات الأرض وتمحى العوائق المفتعلة في وجه الدعوة إلى الإسلام ولا يفكر أحد في فتنة المعجبين والمعتنقين لهذه الدعوة، فلا معنى حينئذٍ لهذه الوسيلة إذا كان القصد منها هو القتال -إذ توجد ضروب كثيرة للجهاد كما هو معروف- ويمكن لنا أن نفهم رأي الشيخ الغزالي في هذا القضية في ضوء محاورته لأحد الشباب المتحمسين دون علم، يقول: "استوقفني شاب ساخط يقول: سمعنا رأيك في الجهاد الإسلامي، وأنه ما يكون إلاّ قمعا للفتنة وتقليما لأظافر الطغاة وحماية للحقوق المستباحة! وما اقتنعنا بهذا الرأي، فقد سمعنا غيرك ولعله أفضل منك يؤكد أن الإسلام بطبيعته السلمية يشتبك مع الطواغيت، ويقاتل الجاهليات، فإذا أجهز على بعضها في ميدان انتقل إلى ميدان آخر ليصطدم بها وهكذا إلى قيام الساعة! ورأيت أن أحاور الفتى، فقلت له: لعل صاحب هذا الرأي يقصد الحرب الوقائية، أي أننا رأينا من يستعد للهجوم علينا فبدأناه بضربة سريعة أجهضت هجومه، أو بتعبير بعض الساسة: تغدينا به قبل أن يتعشى بنا، والحرب خدعة وربما لا يكون في هذا حرج! قال الفتى: دعني من تفسيراتك، لا حرب وقائية ولا حرب دفاعية ولا شيء من هذه التعليلات! الإسلام لا يحيا مع الطاغوت أو الجاهلية...".[3]

لكن كما يبدو فإن الشيخ الغزالي سرعان ما غير مجرى الحديث مع هذا الشاب عندما تأكد من وجود خلل في تفكيره، فأراد أن يبين له المعنى الشمولي للجهاد في عرف الفكر الإسلامي، وأن الملابسات المحيطة

---

1 محمد الغزالي: جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج، الجزائر: دار الكتب، 1987م، ص19.

2 محمد الغزالي: الطريق من هنا، الجزائر: دار الكتب، 1986م، ص151.

3 محمد الغزالي، جهاد الدعوة، مرجع سابق، ص10.

بواقع الإسلام والمسلمين هي التي تتحكم في تحديد نوعية الجهاد أو صورته التي يجب أن تحشد لها الطاقات وترصد لخوضها الكفاءات: "قلت له: ليتكم تعرفون حقيقة الإسلام وواقع الحياة، إنكم تجهلون الأمرين معا، وتتحدثون من خيال سقيم! في هذا الأيام لا نعرف شعوبا برح بها الظلم كما وقع للشعوب الإسلامية، وإجماع العلماء منعقد على أن الجهاد هنا حق لأنه دفاع عن الأرض والعرض والحاضر والمستقبل والتاريخ والشخصية والدين والدنيا، فَلِمَ الجدل البارد حول ما تزعمون من طبيعة عسكرية للإسلام وأنه دين هجوم؟ وهناك أمر آخر أهم، أما تعرفون ميادين أخرى أخطر من ميادين الحرب الساخنة يمكنكم فيها أن تنصروا الله ورسوله؟ في ميدان الإعلام –أو بلسان الشرع ميدان الدعوة توجد مليارات من الناس سيئة العلم بالإسلام تفترسها شبهات وخرافات حول ديننا البريء فهلا أسهمتم في تبديدها؟ في ميدان المال والأعمال تكاد الأديان الأخرى تنفرد بزمام الحياة، وتؤثر في تياراتها سلبا وإيجابا، فهلا تحركتم لتمتلئ الأيدي بالشغل ولتختفي من بينكم البطالة وليكون لكم صوت مسموع؟ في ميدان العلم مدنيا كان أو عسكريا لا يعرف لنا وجود فهلا نافستم واستفدتم وأفدتم؟ في ميدان السياحة والكشوف نقل المتحركون عقائدهم حيث ذهبوا، فماذا حبسكم في أماكنكم؟ في ميدان المساعدات والخدمات الاجتماعية اجتهد كثيرون في تخفيف الآلام وتجفيف الدموع وكسبوا قلوبا تحفظ الجميل فأين أنتم؟".[4]

وعندي أن ما يقرره الشيخ الغزالي هنا هو الأقرب إلى الحق وطبيعة الإسلام في الحركة والتعامل مع الواقع الإنساني من منطلق مبادئه في صون الدماء وترسيخ الحقوق ورعاية الكرامة، ثم إن آراء الغزالي في هذا الموضوع ليست شاذة ولا غريبة عن الإجماع، فهذا أحد أهم المفكرين الإسلاميين المعاصرين يؤكد أنه لم يكن في أي وقت من الأوقات من أغراض الجهاد في الإسلام ولا من أهدافه "إكراه الناس على اعتناقه، لا في مبادئه النظرية ولا في واقعه التاريخ، اللهم إلا فلتات عارضة وقعت خطأ ممن لم يفهموا حقيقة الدعوة الإسلامية، ولا تحسب على الدين لأنها ليست من الدين، وما انتشر الإسلام كما بصمه الجاهلون به والمعادون له، وما كانت الحرب فيه لإكراه الناس على اعتناقه، إنما كانت الحرب لإزالة الطواغيت التي تحكم بين الناس وبين سماع الدعوة، أو تفتنهم عن دينهم حين يختارونه عن اقتناع، كما كانت لإزالة الطواغيت التي

---

[4] المرجع نفسه، ص11.

تدعي حق الألوهية وتغتصب خصائصها وتتعبد الناس من دون الله... والله يريد أن يكون للناس إله واحد وأن يكون الدين كله لله".[5]

3- **ليس الهجوم التوسعي من طبيعة الإسلام:** يناقش الشيخ الغزالي بعض الآراء التي ذهبت إلى أن الإسلام دين هجومي وأنه يبدأ بالقتال قبل أن يفرض عليه أعداؤه الدخول معه في حرب، وقد اعتمد أصحاب هذا التوجه على دليلين: الأول: غزوة مؤتة، والثاني: القتال مع قريش.

بيد أن الشيخ الغزالي لا يرى أي وجاهة في هذه الأدلة المعتمدة، وينعى صراحة على من قالوا بهذا التوجه وفهموا هذا الفهم، لأن دواعي القتال الشرعية سواء في غزوة مؤتة أو في الصدام مع قريش كانت قائمة وهي كافية حتى من الناحية المنطقية لما حدث، فالأسباب "التي دفعت إلى معركة مؤتة[6] معروفة، ولعل كتّاب السيرة المحدثين أقدر على تصوير هذه الأسباب من الكتاب القدامى، فقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم واحدا من رجاله[7] بكتاب إلى أحد الأمراء الغساسنة[8] يدعوه إلى الإسلام، وهؤلاء الأمراء كانوا موالين للروم، يدينون دينهم وينفذون سياستهم، وقد أقلقهم وسادتهم أمرُ هذا الدين الجديد، والنجاح الذي حظي به، فماذا يصنعون؟ عمد الأمير الذي جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكتاب فطوح به، وإلى حامله فقتله!! واستعد مع الرومان لمواجهة تبعات هذا الموقف الآثم! إذا فما الذي تفعله أي دولة تهان دعوتها ويقتل رجلها على هذا النحو؟[9] لا بدّ أن تقاتل، والقتال الذي فرضته الظروف صعب، فإن الرومان شدوا أزر الأمير القاتل بعشرات الألوف من جيشهم الكثيف، وواجه الرجال الذين قاتلوا في مؤتة معركة

---

5 سيد قطب: السلام العالمي والإسلام، بيروت: دار الشروق، ط5، 1980م، ص33-34.

6 قرية تقع الآن على بعد 12 كيلومتراً من مدينة الكرك بالأردن، والمسافة بين المدينة المنورة ومؤتة 1100كم، قطعها المسلمون على ظهور الإبل والخيل، وكانت رحلة شاقة تجلت فيها معالم الغيمان الحق الذي غرسه صاحب الرسالة العظمى في نفوس الأصحاب العظماء.

7 هو الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه.

8 هو شرحبيل بن عمرو الغساني حاكم بصرى، كان عميلاً لقيصر ملك الروم.

9 يؤكد الشيخ أبو الحسن الندوي أن هذا الأمير الغساني القاتل قد خالف المواثيق التي كانت سائدة يومئذٍ، فلم تجر العادة بقتل الرسال والسفراء عند الملوك والأمراء مهما اشتد الخلاف، واعتبر مقتل الحارث ابن عمير الأزدي رضي الله تعالى عنه سابقة خطيرة، تؤثر في مستقبل السفراء والرسل، وذلك وحده كان مبرراً كافياً للدخول في القتال. أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص277.

قاسية، استشهد فيها القادة الثلاثة[10] الذين التحموا مع الرومان وحلفائهم، واستطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بالجيش وأن يجنبه خسائر لا حدّ لها"؛[11] فليس هناك –برأي الشيخ الغزالي– شيء في الإسلام يسمى القهر أو العدوان أو الغدر، لأن هذا الدين يقوم على الحرية، والدعوة التي تحملها رسالته لا تطلب أكثر من الحرية وترك الناس يختارون ما ارتاحت له أفئدتهم من عقائد، وما اطمأنت له عقولهم من مبادئ، ويزيد الغزالي شرح وجهة نظره وتعميقها عقليا ومنطقيا فيقول: "ولست أؤرخ لهذه المعركة، ولكني أعلق على ما قرأته في كتاب ظهر حديثا لأحد العلماء يذكر قصة مؤتة ويقول: إن المؤرخين يحاولون ذكر أسباب القتال الذي وقع، ولا ضرورة لذكر هذه الأسباب! لماذا نعلل لكل حرب خاضها المسلمون؟ يكفي أن عرف طبيعة الإسلام في التوسع (!) لنعرف سر القتال!!... الكاتب غفر الله له نسي الرسالة الموجهة إلى العميل الروماني ونسي مصرع صاحبها، ونسي أن الرومان –موطنهم الأصلي أوروبا– تدفقوا نحو مائة ألف إلى قلب الحجاز، ولم يجيئوا في نزهة صحراوية، وإنما جاءوا في مظاهرة عسكرية لضرب الدين لجديد، ومنع الدعوة من التسلل شمالي الجزيرة العربية... كل ذلك لم يلفت نظر المؤلف الأديب، إنما لفته إبراز الطبيعة التوسعية للإسلام! إن التوسع الإسلامي لا يعتمد على القهر وحروب العدوان، إن العملة المتداولة في ميدان الدعوة الإسلامية هي الفكر الحر".[12]

وعند الشيخ الغزالي فإن أصحاب هذا التشخيص لطبيعة الإسلام في التوسع والانتشار فضلا عن كونهم يجانفون الحقيقة التاريخية والعلمية معا، فإنهم يعرّضون الدعوة الإسلامية إلى متاعب متلاحقة ويضعون العوائق في طرقها خاصة وأنهم صفر اليدين مما يمكن أن ينتصروا به لدينهم وعقيدتهم، فإن قتال الإسلام "للرومان كان أشرف قتال عرفته الدنيا، لأن الإمبرطورية العجوز استهلكت شعوبا كثيفة داخل سجونها قرونا طويلة؛ وعندما نكتب سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم بهذا الأسلوب فماذا يبقى للمبشرين والمستشرقين؟ عندما تعرض الحق على الناس في بيئة جاهلة به فلن يقول لك المستمعون: أهلا وسهلا! سيكون هناك مستغربون وسيكون هناك رافضون، وربما آمن البعض على عجل، وربما قاوم بعضهم بضراوة، ولن تتحدد

---

10 هم: زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن أبي رواحة رضي الله عنهم جميعاً.

11 محمد الغزالي، جهاد الدعوة، مرجع سابق، ص19-20.

12 المرجع نفسه، ص20.

المواقف إلا بعد آماد طوال يصبر فيها الدعاة ويقابلون الهزء بالسكينة، والاستفزاز بالحلم... كذلك كان الأنبياء على امتداد العصور وكذلك كانت سيرة خاتمتهم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام... مع ما تميزت به رسالاتهم من وضوح وتجرد وإشراق، أما اليوم فالدعوة مثقلة بما يضيرها أو يزهد فيها... هناك من يدعو إلى الشكل قبل الموضوع وإلى النافلة قبل الفريضة، وإلى الحكم النوعي قبل القاعدة الكلية، وإلى ما فيه خلاف قبل ما اتفقوا عليه! ثم يدق طبول الحرب وهو صفر اليدين من سلاح يجدي، فإذا الغبار ينجلي عن هزيمة مضاعفة للحق، فقد انهزم مرتين، مرة في ميدان الدليل ومرة في ميدان القتال! وبهذا الفكر المعتل يكتب دعاة عن قيام الإسلام على السيف واجتياحه للخصوم ورغبته في الهجوم!".[13]

أما بالنسبة للقتال ضد قريش، فإن الشيخ الغزالي يعجب أشد العجب من الذين اعتمدوا ذلك دليلا على كون الإسلام يبدأ خصومه بالقتال، ولا ينتظر إعلان أعدائه للرب ضده أو ضد حملة رسالته، وكأن هؤلاء نسوا بل تناسوا ما فعلته قريش بأتباع الدين الجديد من اضطهاد وتعذيب وتشريد واستيلاء على الأموال والأعراض، بل وملاحقة أيضا للجماعة المؤمنة في مستقرها الجديد الوادع بالمدينة، هذه هي الحقيقة التاريخية التي لا يصح أن تنسلا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أُخرجَ من مكة هو ومن آمن به بعد ثلاث عشرة سنة حافلة بالآلام والأحزان، ولم تهدأ عداوة قريش للإسلام بعد الهجرة، بل وثبت على كل من شرح بالإسلام صدرا من أهل مكة فنكلت به، وكان دعاء المستضعفين والمفتونين ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرا﴾ (النساء: 75)، فهل يوصف قتال المسلمين لقريش بأنه حرب هجومية بعد هذه الأحداث الواضحة؟".[14]

4- **الحرية قاعدة الإسلام في الحركة:** يركّز الشيخ الغزالي –في مناقشته للقائلين بأن الإسلام يقدّم القتال على الدعوة– على أن الحرية قاعدة أصيلة في الدعوة إلى الإسلام، فيذهب إلى أن الإسلام لم يكن ليدخل في حرب مع قريش أو الرومان أو الفرس لو ظفرت دعوته بالحرية المطلوبة لتبليغ الحقيقة وشرح الرسالة، فإن أجواء الحرية هي أقصى ما تطلبه هذه الدعوة، لكن المعروف المؤكد تاريخيا "أن الرومان انتشروا في آسيا وإفريقيا كالجراد الذي يأتي على الأخضر واليابس... والاستعمار الروماني مقرون بالاستبداد والقسوة

---

13 المرجع نفسه، ص20-21.

14 المرجع نفسه، ص21-22.

والكبرياء، وقد احتضن النصرانية فشوهها ومال بها نحو الوثنية، وطارد الكنائس الموحدة حتى أبادها، وعندما ظهر الإسلام اعترض طريقه، وضن عليه بحرية الحركة، ونازله شمالي الجزيرة ليقضي عليه! فهل تصدي المسلمين للصلف الروماني وكسرهم الطوق الذي وضعه يوصف بأنه حرب هجومية نشأت عن رغبة الإسلام في التوسع؟ أي توسع؟ هل حق الدين الجديد في عرض نفسه على الناس كلهم، وإبائه تكميم الأفواه وفتنة الضعاف هو العيب الذي يوصف به ويُلام عليه؟ ومع هذه المقررات البديهة فإن رئيس حزب إسلامي يكتب في نشرة مطولة لأعضاء حزبه أن الإسلام يبدأ بالقتال ويرسم خطة الهجوم على مخالفيه. يقول الشيخ **تقي الدين النبهاني** رحمه الله: "إن قول الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله يدل دلالة واضحة على أن الجهاد هو بدء الكفار بالقتال لإعلاء كلمة الله ولنشر الإسلام. ويقول: إن خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بدر لأخذ قافلة قريش هو خروج للقتال،وهو مبادأة بالقتال، فقريش كانت دولة، ولم تكن بعد قد اعتدت على الرسول صلى الله عليه وسلم أو على المدينة حتى يدافع عنها، بل هو الذي بدأهم بالقتال!...".[15]

ويتابع الشيخ الغزالي مناقشته لكلام الشيخ النبهاني قائلا: "إن تصور الوقائع على هذا النحو أقرب إلى الهزل منه إلى الجد ولا أدري كيف يستقيم في عقل إنسان أن المطرودين من ديارهم، المصادرين في عقائدهم لم يتعرض لهم أحد بعدوان؟ ويمضي رئيس حزب التحرير الإسلامي فيقول: (إن قيام النبي صلى الله عليه وسلم بإرسال الجيش إلى مؤتة لقتال الروم وتوجهه إلى تبوك مقتربا من حدود الروم لمقاتلتهم ظاهر فيه كل الظهور أنه بَدْء بالمقاتلة)! وهذا الكلام من أغرب ما يقال، وفي ضوء هذا المنطق المدهش يمكن وصف الحروب التي يقوم بها زنوج إفريقيا الجنوبية* الآن بأنها حروب هجومية، ووصف المناوشات التي يقوم بها عرب فلسطين ضد دولة إسرائيل بأنها قتال هجومي! إن العقل الذي يلتقط صور الأحداث بهذا البتر والتقطيع والحكم العجول يجب الإعراض عنه، ومن المؤسف أن يكون لهذا التفكير وجود بين الإسلاميين... لا يحتاج الإسلام إلاّ إلى جوّ حُرّكَيْ ينتشر ويدخل الناس فيه أفواجا، ما دام العرض سليما والعائق منفيا".[16]

---

15 المرجع نفسه، ص22.

* كتب الشيخ هذا الكلام قبل غلبة إراشدة سكان جنوب إفريقيا الأصليين على نظام الأبارتايد الاستعماري الذي فرضه الغرب قهراً وعدواناً وتسلطاً.

16 المرجع نفسه، ص22-23.

ويزيد الغزالي الإسلام إنصافا فيسهم في شرح طبيعته في الانتشار والامتداد، ويستعمل المنطق العقلي وقوة الحجة وهو يبرئ ساحاته في القتال والاشتباك مع قوى الظلم والقهر والاستبداد، كما يزيد مبدأ الحرية تأصيلا وتعميقا باعتباره معنى مطابقا لمعنى التوحيد نفسه فيقول: "ونحن لا نكره أحدا على ولا نقبل إيمان مكره، كما أننا نحتكم إلى العدل المطلق فيما ينشب بيننا وبين غيرها من خلاف، ولا يميل بنا عن العدل حب ولا بغض.. ولو كانت دولتا الروم والفرس تقومان على مبادئ الحرية والعدالة وضمان الحقوق الإنسانية ما قامت بيننا وبينهما حروب، الذي وقع داخل الدوليتين وخارجهما أن الاستبداد السياسي حبس الجماهير وراء سياج حديدي بالغ القسوة، وأن جنون القوة أغرى الدولتين معا بتكسير المصابيح التي حملها الإسلام، فكان القتال لا لنشر الإسلام ولا لإكراه أحد على اعتناقه، بل لكي تسود الأوضاع الطبعية، وبعدئذٍ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولا يطلب الإسلام في الميدان العالمي أكثر من حريات مستقرة، وإذا عجز المسلمون في ميدان تكافؤ الفرص وحرية الأخذ والرد، عن نشر دينهم، فلا أقدرهم الله ولا بارك فيهم! (...) إن فن الدعوة يحتاج إلى ألوف من الأذكياء الأتقاياء يأخذون طريقهم إلىالأفئدة والعقول بلباقة ورفق، فإذا اعترض السيف هؤلاء برز من جانبنا سيف يناوشه ويعيده إلى غمده، ويترك الحكم للمنطق والأدب لا لغرائز السباع... إن هذا هو اتجاه الوحي النازل علينا، وهو المفهوم من عشرات النصوص التي نتلوها، ومن ثَمّ فإنني أنظر باحتقار شديد إلى أشخاص عجزة في ميدان الدعوة، كسالى في سباق الخير، لا صياح لهم إلاّ السيف السيف!! ولو قام السيف لكانوا أول ضحاياه! لقد أصاب الإسلام ضرٌّ شديد من الانحصار العقلي الذي سيطر على أولئك المتحدثين ومن التحريف الذي فرضوه على الأحداث، فأمست قريش معتدى عليها في معركة بدر وأمست الإمبراطورية الرومانية الاستعمارية معتدى عليها في مؤتة وتبوك!".[17]

5- **حول ما يسمونه آية السيف:** يؤمن الشيخ الغزالي إيمانا راسخا بمكانة الجهاد في الإسلام وبقدسية رسالته في إنصاف الحق من الظلم وإنصاف الحرية من الاستبداد وإنصاف الأمان من العدوان، لذلك نراه يرد على كاتب طرقي ينكر فريضة الجهاد ويؤول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: 4) بكون هذه الآية لا علاقة لها بالحرب والجهاد، وإنما هي تتحدث عن الذين قتلوا

17 المرجع نفسه، ص23-24.

شهواتهم وأهواءهم! فيقول: "... هذا الكلام يمكن أن يكون إفرازا لأي شيء في الجسم إلا المخ!"[18] خاصة وأن هذه الآية الكريمة تتكلم صراحة عن ضرب رقاب الكفار عند اللقاء، بل إن المفسرين يطلقون على السورة التي وردت في سياقها اسم: سورة القتال... غير أن الشيخ الغزالي لا يرغب في إثارة الجدل عن الحقائق المقررة في الإسلام؛ إن نقاشه يتجه لأولئك الذين يزعمون أن آيات الدعوة والتعليم والشرح ولتوضيح قد نسخت بما يسمونه آية السيف ويقصدون بذلك سورة براءة.[19] وقد حقق الشيخ الغزالي في هذا النسخ المزعوم وأحصى مائة وعشرين آية من القرآن الكريم، كلها تبين منهج النَّفس الطويل الذي اعتمده الإسلام في هداية أهل الأرض واقتيادهم بلين ولباقة ورفق إلى صراط الله المستقيم، وفي ذلك يقول: "... وانتقل هذا الاضطراب الفكري إلى نصوص الكتاب والسنة، فإذا تيار من الفوضى يلغي باسم النسخ نحو 120 آية قرآنية، ويعوج بمفهوم آيات أخرى، ويخرج الإسلام للناس في صورة ذميمة! (...) إن كتبنا القديمة تجمع في القضية الواحدة ركاما من الآراء فيه الصحيح، وفيه الذي يحتمل الصحة، وفيه الباطل وفيه السقيم، ويجيء ذوو النظرات السطحية فيقرءون هذا وذاك، وربما لم يعلق بأذهانهم إلاّ ما لا خير فيه... وهذا الخلط المتباين أساء إلى ثقافتنا الإسلامية، وربما منح الحياة مرويات كان يجب أن توأد يوم ولدت! وقد سمعت البعض يرحب بهذه الحرية! ولكني عند التدبر والموازنة شعرت أن العملة المزيفة طردت العملة الصحيحة؛ ولما كان حكام المسلمين في أغرب العصور أفرادا يغلب عليهما الجهل، فإن سلطاتهم الواسعة ساندت الأوهام والأخطاء، لا سيما في ميدان الدعوة... إن المسلمين حملة رسالة عالمية بيقين، ونقل هذه الرسالة إلى الناس وظيفة شريفة، وغياب الحكومات الإسلامية عن هذا النقل وضماناته وتبعاته أمر غير طبعي، كما أن ربط هذا النقل بأهواء الحكام وأمجادهم الخاصة مرفوض".[20]

والذي ظهر للشيخ الغزالي من تحقيقه في هذا الموضوع أن آيات الدعوة والاعتماد على الحكمة والموعظة الحسنة في أسلوبها هي آيات محكمة جميعها وأنه يستحيل أن يقع نسخ لآية من آيات الدعوة، فلذلك عنده –لو وقع– لا يعني إلاّ استقالة هذه الأمة عن وظيفتها العتيدة في هذه الأرض، لذلك فنحن

---

18 قطب عبد الحميد قطب: محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع، الجزائر: مكتبة رحاب، 1990م، ص219.

19 قال بعض المفسرين بأن آية السيف هي قوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ (التوبة: 6)، وقال آخرون بل هي قوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة: 37).

20 محمد الغزالي، جهاد الدعوة، مرجع سابق، ص24-25.

نجد الشيخ وبعد أن يورد جملة من آيات من سورة النحل تثبت أهم خصائص الدعوة والدعاة يصرح بأن "القول بالنسخ مرض أصاب بعض المتكلمين في القرآن الكريم وكان سبب بلاء شديد للأمة الإسلامية، بل إنه عكر رونق الدعوة ووضع في مجراها الجنادل! أليس من المصائب أن تثبت أقوال هنا بأن هذه الآيات منسوخة؟[21] وماذا بعد إلغائها إلاّ إبطال رسالة الأمة كلها، وهي الدعوة الواضحة الموصولة حتى قيام الساعة؟ ماذا يكون عملنا بعد ذلك النسخ؟ قطع الطريق قتل ما لا يدري؟... صحيح أن الراسخين في العلم رفضوا هذه الأقوال! ولكن أفواجا من الشباب المغرور والشيوخ العجزة انتشروا في هذه الأيام يؤثرون نسخ ألاّ إكراه في الدين، ونسخ محاسنه في الدعوة... ويجب وضع حد لهذا البلاء".[22]

إنه يستحيل –بفهم الشيخ الغزالي– أن يتعرض الإسلام للغير بالقتال والعدوان من غير أن يبدأ هؤلاء بمناوشة الدعوة أو مطاردة الدعاة، فالأصل باق أبد الدهر وهو دفع ضريبة الدعوة وتبعات البلاغ من الشرح والبيان والقدوة والسماحة والرحمة والمصابرة والتجاوز...إلخ، فإن وجدت الدعوة الحرية المطلوبة دون عوائق فلا مجال للتفكير حينئذٍ في صدام أو عدوان، لذلك فلا غرْوَ إن نحن وجدنا الشيخ الغزالي يعلق على قول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (قّ:39)، بقوله: "الأمر بالصبر باق لا منسوخ، وليس الصبر رضا بما يقال، ولا ضعف إحساس بما فيه نكر، ولكنه معرفة بالحجب التي رانت على القلوب، والوراثات التي ضللت الأفكار، ورسم للخطط التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ أخشى أن يكون عدم الصبر استقالة من وظيفة الدعوة، وعجزا عن القيام بأعبائها، وبعض الناس يستطيل أيام التعليم ويستوعر مواجهة الجهال فيحتكم إلى السيف!! والغريب أن السيف الآن ليس مع أهل الإيمان! ومع ذلك فلا يزال بعضهم يتحدث عنه! إنهم لا يعرفون طبيعة الدعوة الإلهية ولا واقع الحياة الإنسانية! إنهم بلاء على الإسلام وعلى أنفسهم".[23]

وفي معتقد الشيخ الغزالي أن الذين فهموا بأن ما ورد في سورة براءة قد نسخ آيات الدعوة بكل مواصفاتها وقواعدها وثوابتها، ليسوا على شيء من فقه القرآن وفقه الدعوة وأصولها وتاريخها، وليس لهم حظ

---

21 يقصد الآيات الكريمة، رقم: 125-127 من سورة النحل.

22 المرجع نفسه، ص52.

23 المرجع نفسه، ص73.

في فهم طبيعة الإسلام في التعامل مع النفوس البشرية ومتغيرات الواقع الإنساني واستيعابها، فإن سورة براءة نزلت بعد اثنتين وعشرين سنة من بدء الوحي والرسالة، وقد نزلت لتحسم الموقف مع المشركين والمنافقين وأهل الكتاب الذين نقضوا العهد المبرم بينهم وبين الدولة الإسلامية النبوية القائمة في المدينة المنورة، وهل من الحكمة أن تترك الدولة الإسلامية تلك الطوائف تعبث بالإيمان والأمن والعهود والمواثيق كيفما شاءت؟ لقد كان من الضروري حفظا لمصلحة المجتمع الإسلامي –وهذه المصلحة تعني أيضا مصالح كل الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية– أن تترك مهلة أربعة أشهر لهؤلاء العابثين والناقمين لكي يتوبوا خلالها عن خساستهم أو ينطلقوا حيث شاءوا في أرض الله الواسعة، وإلا فإن السيف سيقتص من كيدهم ونذالتهم وهبوطهم الإنساني، وليس في ذلك أي مس بالحرية الدينية أو الكرامة الشخصية، فللجميع حق العيش الوادع في ظلال المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية إذا روعيت القوانين القائمة واحترمت المواثيق المبرمة وصينت العهود الموقعة... ومن ثمّ فإن الشيخ الغزالي ينعى على المفسرين الذين جانبوا الصواب في تفسير سورة براءة، لأنهم –برأيه– لم يعيشوا كما يجب في جوّها ولم يحسنوا إدراك مواقع النزول ولا ربط الأحكام بحكمتها، ويقول: "سمعت من يحتج بالآية ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ (التوبة: 36) فقلت له: ألا تكملها؟ أليس بعدها ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (التوبة: 36) فأبى في الآية الدعوة إلى الهجوم وإعمال السيف في الناس؟ ويشيع بين المفسرين أن آية السيف نسخت ما جاء قبلها، وعند التحقيق لا يوجد ما يسمى آية السيف! هناك جملة من الآيات في معاملة خصوم الإسلام، وفي مقاتلتهم أحيانا لأسباب لا يختلف المشرعون قديما وحديثا على وجاهتها وعلى أنها لا تنافي الحرية الدينية في أرقى المجتمعات"؛[24] ولكي نتلافى مثل هذه الفهوم فإن الشيخ الغزالي يدعو إلى ضرورة التفريق بين أسلوب الدعوة وبين عمل الدولة ووظائف أجهزتها التنفيذية... فإذا كان الدعوة تقوم أساسا على قوة الحجة والإقناع والقدوة والحوار الهادئ والتلطف في المعاملة، فإن الأجهزة التنفيذية الدولة تقوم على القضاء والشرطة والجيش، أي على ضرورة حفظ الأمن والحيلولة دون وقوع الجرائم؛ فليس هناك ما يقتضي الخلط بين طرق الدعوة ومناهجها ووسائلها المؤسسة على الحكمة والموعظة الحسنة

---

[24] المرجع نفسه، ص101. للوقوف على رأي الغزالي بصورة أوضح عمّا يسمى آية السيف تراجع خطبته بجامع عمرو بن العاص بالقاهرة، ليوم الجمعة: 1973/12/21 (قطب عبد الحميد قطب، خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة، الجزء الثاني، الجزائر: مكتبة رحاب، ص53–63، وفصل تاويلات الجاهلين في كتابه: جهاد الدعوة، مصدر سابق، وفصل طور جديد في كتابه: فقه السيرة، وكذا خاتمة الكتاب.

والرفق والإنة الجانب، وبين أدوات السلطة ووسائلها في حرب الجريمة وصيانة الدماء والأعراض والأموال، ولا شك أن هذه الوسائل قد تمتد للقصاص من مجرمين استغلوا الحريات المبسوطة في الإفساد أو تعكير الأمن المستتب في أرجاء الدولة الإسلامية.[25]

وأحب هنا أن أبين بعد مراجعتي لتفسير سورة براءة في المجلدين: العاشر والحادي عشر من تفسير المنار بأن الكثير من آراء الشيخ الغزالي ونظراته في موضوع طبيعة انتشار الإسلام قد طالها أثر أو نضح مما ورد في هذا التفسير الموسوعي الرائد، وإن كان الغزالي فيما أرى قد أبدع –كعادته في أي موضوع يتصدى بكل طاقته العقلية لمعالجته– حين وضّح كون مبعث الخطأ الذي وقع فيها بعض المفسرين ممن قالوا بأن بعض آيات القتال التي وردت في سورة براءة قد نسخت آيات الدعوة، إنما هو عدم تفريقهم بين سياسة الدعوة القائمة على البيان والموعظة الحسنة وبين سياسة الدولة القائمة على مؤسسات وهياكل تنفيذية قد يقتضيها الأمر تأديب الخارجين عن القانون أو القصاص من المجرمين والناكثين للعهود والمواثيق... ولا بأس أن أعطي مثالا واحدا هنا يعضد ما ذهبت إليه... كتب الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تحت عنوان "آية السيف وكونها غير ناسخة لآيات العفو والصفح" في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ (التوبة: 5) يقول: "وهذه الآية هي التي يسمونها آية السيف، واعتمد بعضهم أن آية السيف هي قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة: 36)، وقال بعضهم إنها تطلق على كل منهما أو على كلتيهما، ويكثر في كلام الذين كثروا الآيات المنسوخة أن آية كذا وآية كذا من آيات العفو والصفح والإعراض عن المشركين والجاهلين والمسالمة وحسن المعاملة منسوخة بآية السيف، والصواب أن ما ذكروه من هذا القبيل ليس من النسخ الأصولي في شيء"؛[26] فهذا مجرد مثال يشير إلى ما كنت قد قصدت إليه، وهو لا يسلك في مسلك المقارنة، فما عنيت ذلك بحال، لأن الشيخ الغزالي في العديد من مواطن كتاباته ونتاجه الفكري يصرح بإعجابه البالغ بالمنار التفسير، وبالمنار المدرسة الفكرية الاجتهادية التجديدية الرائدة.

---

[25] المرجع نفسه، ص41.

[26] محمد رشيد رضا: تفسير المنار، المجلد العاشر، بيروت: دار المعرفة، ص166.

ثالثا: مناقشة الغزالي للجبهة الثانية

تصدى الشيخ الغزالي للمبشرين والمستشرقين الذين اتهموا الإسلام بكونه قد انتشر بالسيف والحروب الهجومية والعدوانية ونحوها، والعديد من مؤلفاته[27] زاخر بمناقشة شبهات هذه الجبهة وافتراءاتها المناوئة للإسلام ودعوته وضارته، ويمكن استعراض مناقشة الغزالي لهذه الجبهة وردوده عليها من خلال النقاط الآتية :

1- **فرية لتغطية حقائق التاريخ:** يرى الشيخ الغزالي أن الغرب بشتى دوائره ومؤسساته يستمرئ في معاداته للإسلام بعثرة المفتريات والأكاذيب في كل أفق كي لا يفتضح أمره وتتكشف للأعين حقائق التاريخ، لذلك فإنه على الدوام يلصق بالإسلام التهم والشنائع التي هي من صميم حضارته وجوهرها هو لا حضارة الإسلام، وهذه الخاصة لا تكاد تنفك مطلقا عن دوائر الحضارة الغربية، فإن "الغرب المسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه... الغرب الذي يجر وراءه ألوفاً من الأمم المأسورة، والدول المقهورة، بعد ما كسر شوكتها بقوته الباطشة... الغرب الذي رسم الصلبان –رمز التضحية– على رايات تظلل جيوشا طالما اشتغلت بالسلب والنهب، وانطلقت في مشارق الأرض ومغاربها تثير الرعب والفزع؛ هذا الغرب العنيد هو الذي ينشر بحوثا علمية نزيهة (!) لإثبات أن الإسلام قام على السيف. ذلك جهد كثير من المستشرقين الذين أخضعوا العلم لنزغات الهوى والتعصب الذميم... ومتى يقال هذا؟ في الوقت الذي جثم فيها الغرب المسلح على الشرق الأعزل يبغي هلاكه..[28] والقصد البين منه تسويغ منطق القوة العمياء الذي نعامل به، وصرفنا عن إعداد العدة التي نسترد بها خسائرنا ونحامي بها عن مقدساتنا، وقد وصل ساسة الغرب ومستشرقوه إلى هدفهم، وتكوّن جيل من المسلمين يحسن الظن بمستقبل الحق العاري عن القوة فكان الفشل مصير قضايانا كلها، وأصبح البغاث يستنسر بأرضنا!".[29]

فإذا كان هذا هو المنطلق الذي يعتمده الغرب في تحركه وتعامله مع الإسلام، فإن الشيخ الغزالي يدعو المسلمين إلى أن لا تنطلي هذه الحيلة الماكرة، فإذا كان "الهجوم المسلح غير مطلوب دينا، فإن السلم المسلح

---

27 منها: جهاد الدعوة، ومع الله، والتعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ومستقبل الإسلام خارج أرضه، وهموم داعية، والإسلام والاستبداد السياسي، والاستعمار أحقاد وأطماع، وكفاح دين.

28 كتب الشيخ ذلك عندما كان العالم الغسلامي تحت هيمنة الاستعمار العسكري الغربي.

29 محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، القاهرة: دار الكتاب العربي، ص98-99.

من أركان الدين، وذلك يتقاضى الأمة أن تأخذ أهبتها كاملة فلا تبخل على عدد الحرب بمال ولا تمسي إلا وهي واثقة من أنها على حذر وتهيؤ فإذا بوغتت ردت على العادين وهي عزيزة قادرة"؛[30] إن افتراء الغرب على الإسلام وإلصاق تهمة السيف بالقهر بتاريخ وانديا ح دعوته، لا ينبغي في مفهوم الشيخ الغزالي أن يقابل بروح فاترة تنم عن الشعور الداخلي بالهزيمة والضعف، بل يجب على الأمة أن تحافظ على دعوتها وأن تتشبث بالحق الذي شرفها الله به، خاصة وأن الذاكرة الإنسانية تدرك يقينا أن تاريخ هذا الغرب هو الموصوف فعلا لا افتراء بالقهر والدماء والدموع والسلب والنهب والتعصب والاستعباد.

2- **ليس في الإسلام ما نستحي من كشفه:** خصص الشيخ الغزالي فصلا مطولا من كتابه مع الله وهو موسوعة ضخمة في الدعوة الإسلامية، تحت عنوان "كيف انتشر الإسلام" ناقش فيه آراء بعض المستشرقين والمبشرين ممن اتهموا الإسلام بممارسة العنف واعتماد القوة في مسار انتشاره التاريخي، وحاول الغزالي الرد على هؤلاء بالحجة الدامغة والمنطق العقلي وحقائق التاريخ متوخيا إنصاف الإسلام من شانئيه وجاحدي فضل ما أسداه من خير ونفع للإنسانية.

وإن كان الغزالي قد ناقش ورد على الأب لامانس اليسوعي –رمز تفكير المستشرقين الكاثوليك كما يسميه ونولدكة –رمز الاستشراق الألماني المتعصب– وفيليب خوري حتي والقسيس موير وآخرين غيرهم... فإنه ركز سجاله ونقاشه على المادة العلمية والتاريخية التي أثبتها المستشرق الإنجليزي سير توماس أرنولد في كتابه الشهير **الدعوة إلى الإسلام**... يقول الشيخ: "بين يديّ كتاب كبير عن الدعوة إلى الإسلام ألفه بالإنجليزية سير توماس أرنولد وهو بحث واسع في تاريخ نشر العقيدة توفر على وضعه هذا المستشرق المجتهد الدؤوب، وفي الكتاب وثائق قيمة تكشف عن طبيعة انتشار الإسلام في أغلب أقطار العالم أو فيها كلها، وقد بذل الرجل جهدا واضحا ليكون منصفا في أسلوبه واستدلاله. وأحسب أن التوفيق لا يخطئنا إذا قلنا: إن هذا المستشرق من أعدل إخوانه رأيا وأنفذهم بصرا وأميلهم إلى أدب اللفظ وإثبات الحق؛ ومع ذلك فإن سيره مع عقيدته القديمة، وإخلاصه لوظيفته العتيدة وخضوعه لكثير من المؤثرات التاريخية والسياسية جعله

---

30 محمد الغزالي: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، الجزائر: دار الشاب، ص119.

يميل عن الصواب قليلا وهو يرسل بعض الأحكام عن الشريعة الإسلامية وعن وسائل امتداد الإسلام في الأرض".[31]

وكأن الشيخ الغزالي يود أن يقول للقارئ: إذا كان أكثر المستشرقين صوابا وإنصافا لحقائق تاريخ انتشار الإسلام تصدر عنه أحيانا بعض السموم التي تنم عن عداء دفين وحقد متوارث للإسلام وعقيدته وحضارته، فكيف بالآخرين غيره ممن لم يقدروا على كتم سخائمهم الملتهبة ضد هذا الدين الطيب الطهور؟ وليس من خلق الغزالي الإنقاص من الآخرين إن أصابوا حتى وإن كانوا على غير دينه وانتمائه الحضاري، لذلك فإننا نجد الشيخ الغزالي يغلي غضبا من قول توماس أرنولد: "... ينبغي أن يعلم القارئ –منذ البداية– أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية (!) وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم... وليس الغرض أن نؤرخ هنا للحالات التي استعملت فيها القوة لإدخال الناس في الدين الإسلامي ممن نجده مفرقا في صفحات التاريخ الإسلامي، فقد عني الكتاب الأوروبيين بيان هذه الحالات حتى لم يعد ثمة خوف من إغفالها...".[32]

ويرد الشيخ الغزالي موضحا تناقضات هذا المؤرخ الإنجليزي، بأسلوب الداعية الشفيق على دينه المخلص لدعوته قائلا: "اضطهادات إسلامية!!! ما هذه الخرافة؟ أين هي؟ ومتى وقعت؟ وعلى من؟ إن "السير توماس أرنولد" نفسه أول شاهد على تكذيب هذه الفرية، لقد استعرض في كتابه كيف انتشر الإسلام من الصين وإندونيسيا شرقا، إلى الأندلس والمغرب وغينيا وغانا غربا، وتتبع دخول الناس في هذا الدين في أنحاء القارات الثلاث، فلم يجد أثرا لاضطهاد يمكن أن يكتب عنه أو يشير إليه. ومع ذلك فهو يقول: إنه لا يحصي حالات الاضطهاد اكتفاء بما صنع كتّاب أوروبا الذين لم يفتهم تسجيلها! عجبا... لماذا لم يقل الرجل: إنه لم يعثر –في بحثه الطويل– على أي اضطهاد خلافا لما زعم كتّاب أوروبا؟ ولكن غلبة الكُره التقليدي للإسلام على ذهن الرجل جعلته يلقي الكلام على هذا النحو، فلما أعوزه الدليل عل ما ذكره، نقل عن "سويرس" أن مروان آخر ملوك بني أمية قال لأقباط مصر "كل من لا يدخل في ديني ويصلي صلاتي ويتبع رأيي من أهل مصر قتلته وصلبته"، وهذه لا ريب كلمة مكذوبة! وما يعرف له في التاريخ

---

31 محمد الغزالي: مع الله، القاهرة: المكتبة الإسلامية، ط5، 1981م، ص108.

32 المرجع نفسه، ص109.

المصري أثر ولا مكان، وما حكى مؤرخ قط أن أحدا من حكام مصر قتل قبطيا وصلبه لأنه آثر البقاء على نصرانيته!".[33]

ويمضي الشيخ الغزالي في مناقشة أقاويل هذه الجبهة المناهضة للإسلام عن طبيعة انتشار الدعوة الإسلامية في الأرض، فيقدم الأدلة المشحونة بالحق على كون الإسلام وحده دين السلام والحجة وتقدير مواريث الآخرين، وأن مواصفاته الفطرية والذاتية هي وحدها سبب انتشاره واستيلائه على الأفئدة والقلوب، ويصل الشيخ في تشخيصه إلى أن معظم المستشرقين والدارسين للتاريخ الإسلامية يدركون هذه الحقائق لو أرادوا الصدق مع نتائج بحوثهم، وهم يعلمون كذلك أن الإسلام لا يلجأ للقوة إلاّ مع الجبابرة أعداء الحرية من قاهري الشعوب، وكأن ما يغيظ أعداء الحقيقة شيء واحد فحسب "هو أن الإسلام زودته العناية بتعاليم تجعله صلب المكسر، لا يستطيع الباطل أن يجتاحه بسهولة، ولا أن ينال منه بيسر، بل نقدر أن نقول: لقد كان هذا الباطل يزأر في عرصات الدنيا دون تهيب وليزعج الآمنين في كل قطر دون وجل؛ فلما ظهر الإسلام واشتبك الباطل معه عاد من هجومه مقصوم الظهر مخضوب الكف. فراح يجأر بالشكوى أن الإسلام دين سيف، وأن الحكم في رحابه جعله صلب العود... نعم هو كذلك وما عيب السيف إذا رد المعتدين؟ وما عيب الصلابة في الحق إذا استعصت على الفتّانين؟ إن السؤال الذي يجب أن تتحد الإجابة عنه هو: هل كان الحكم في الإسلام أساسا لفتنة غير المسلمين عن دينهم؟".[34]

وأحسب أن الشيخ الغزالي أجاب بإسهاب واستفاضة عن هذا التساؤل الأخير في العديد من مؤلفاته الثرية خاصة منها **الاستعمار أحقاد وأطماع والتعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام**... ليس من منطلق فقهه ووعيه بالقرآن وإنسانية أحكامه فحسب، وإنما أيضا من منطلق استيعابه لحركة التاريخ وحسن انسجامه وتواصله مع الثقافة التاريخية وفلسفة التاريخ ومقارنة الأحداث وخصائص الحضارات... وليس من شك أن الحكم الإسلامي قدم أنصع صفحة عرفتها الدنيا في السماحة واحترام الأديان وتقديس الحقوق ونبذ الاضطهاد والاستعباد، وأن الإسلام لا يلتفت إلى المغالبة والقوة إلاّ إذا حيل بينه وبين سماع الشعوب لكلمته ودعوته، كما حصل فعلا مع الروم والفرس... والشيخ الغزالي يعمق هذه المعاني بدلالات واقعية تعكس

---

33 المرجع نفسه، ص109-110.

34 المرجع نفسه، ص129-130.

صدق ما ألمحنا إليه فيقول: "ضحكت وأنا أسمع أحد المغفلين يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف وقلت على الفور: لا يا صاحبي، التعبير الصحيح في هذه القضية: أن الإسلام انتصر على السيف! وإذا كان منتهى كيد الفتنة المغلوبة على أمرها –بعد ما فُلّ حدّها– أن ترمي الإسلام بهذا الوصف، فلا على الإسلام من ذلك. لقد أدى الإسلام واجبه في كسر شوكة العدوان، وفي قهر الضلال على التراجع، وعلى ترك المكاسب الطائلة التي حصل عليها... فليسمع الشتائم والتهم من السلطان المعزول، أو من الوحش المقهور؛ فلأن يشتم وهو حي يؤدي رسالته النبيلة أفضل من أن يبيد ثم تسمع فيه كلمات الرثاء. نعم وماذا يعود على الإسلام أو على الناس لو أن الرومان أفلحوا في خنقه، أو أن الفرس تمكنوا من شنقه، ثم قال كلاهما بعد أن أهال التراب على جثته: كان دينا مسالما وكان أتباعه طيبين!".[35]

3- **الإسلام حركة دائمة معروضة على العقل**: يجزم الشيخ الغزالي بأن الإسلام في أصوله وتعاليمه وأخلاقياته هو دعوة للسلم والرحمة والتكافل، ومن ثَمّ فإنه لا يعتبر منهجا للمسلمين وحدهم، بل لجميع بني البشر ولكل الكائنات في هذا الكون الكبير، وهذه القسمات المعجزة منحت هذا الدين سمة الديمومة والتجدد، فكان بذلك كله حركة زمانية مستمرة معروضة على العقل والإرادة الحرة، ثم إنه بالاستناد إلى هذا الفهم يكون نقيضا تاما للقوة والعنف والقهر ولمختلف الإشاعات التي روّجها عنه زورا وافتراء المستشرقون ودوائر الكيد التقليدي.

ويذهب الشيخ الغزالي إلى أن الإسلام أنساب في الأرض وسكن الأرواح والأفئدة لموقفه الفذ من احترام الإرادات الإنسانية وحرية التمييز والاختيار فيها، ويصرخ الشيخ من فوق منبر الجمعة مهاجما أعداء الحقيقة التاريخية الفذة ومؤكدا كون "بعض العابثين، وبعض الجهال، وبعض المبشرين والمستشرقين لا يدرون جيدا –وربما دروا لكنهم يغالطون– موقف الإسلام من القتال... العلاقة بين الإسلام وبين سائر الناس – من وثنيين وكتابيين وملحدين– العلاقة أساسها على النحو الآتي: نحن أصحاب دين يكلفنا أن نعرضه على الخلق كلهم، هذا الدين يعرض نفسه على كل من يبلغه، على كل من له عقل، نعرض ديننا ثم نقول للناس: أترون أن قواعد هذا الدين سليمة؟ أترون أن مبادئه راشدة؟ أترون أن قيمه صحيحة؟ فإن قالوا: نعم وآمنوا

---

35 محمد الغزالي: الاستعمار أحقاد وأطماع، القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ط3، 1983م، ص127.

فهم منّا ونحن منهم... أن لا يفضل أحدنا الآخر في شيء... وإن قالوا: لا نؤمن بما جئتم به، قلنا لهم: فلنا تساؤل معكم: أنتم رفضتم أن تؤمنوا بما جئنا به أو بما عرضناه عليكم، نريد أن نسألكم سؤالا: هل تتركوننا نعرض هذا الدين على غيركم، وإذا قبل الغير هذا الدين هل تعترضون طريقه وتمنعونه من الإيمان؟ فإن قالوا لنا: أنتم أحرار، نحن كفرنا بكم ولم نصدقكم، لكن جربوا حظكم مع غيرنا، فإن آمن بكم مَنْ آمن، ما لنا به صلة ولا لنا عليه اعتراض، إن كان موقفهم هكذا، فلا سبيل لنا عليهم ولا كلام لنا معهم ولا يجوز أن نعترضهم بشيء يسوؤهم في أنفسهم أو أموالهم".[36]

هذه هي القاعدة الأصلية التي يضعها الإسلام —كما يرى الشيخ الغزالي– وهو يتحرك بدعوته ويجوب بتعاليمها الآفاق يبغي هداية الناس وتعبيدهم لربهم العظيم الواحد العظيم الواحد الأحد الفرد الصمد، وهي قاعدة تعكس بوضوح قيم: السلم، والحرية، وحب الخير لكل بني البشر ودعوة العقول إلى التفكير والبحث عن الحقيقة، وهي قيم راسخة وأصيلة في رسالة الإسلام، فأين إذا مواضع تلك الشبهات الحاقدة التي يروّج لها المبشرون والمستشرقون ودوائر الكيد التقليدي لهذه الأمة؟ إنها شبهات سريعة الانفثاء لو وجدت العقول الحصيفة المفكرة، ولو اختفت الضغائن الموروثة... إن الإسلام —كما يؤكد الشيخ الغزالي– "لا يشتهي سفك الدماء، ولا يندفع إلى امتشاق الحسام إلا مكروها. وأمل الإسلام الحلو ورغبته العميقة أن تتحول فجاج الأرض إلى آفاق سماوية، تموج بأناس يشكرون ربهم، ويذكرون نعمه دون أن تشغلهم حروب، أو تستشري بينهم عداوات".[37]

ويلاحظ الشيخ الغزالي أن النصرانية —مثلا– فجر ظهور الإسلام بدل أن تتجاوب مع تعاليم الإسلام ورغبته في السلام والحرية وتتعاون معه في تحقيق تلك المبادئ والمثل البديعة، نظرت له —مع الأسف– "لا على أنه دين يعاون في هداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور، بل على أنه منافس محذور النجاح، كما ينظر التاجر القديم إلى مؤسسة جديدة مزودة بأسباب النهوض والنماء، فهو يرى امتدادها والإقبال عليها خطرا على كيانه وبقائه".[38]

---

36 قطب عبد الحميد قطب: خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة، الجزائر: مكتبة رحاب، ج2، ص57.

37 محمد الغزالي، الاستعمار أحقاد وأطماع، مرجع سابق، ص119.

38 محمد الغزالي: كفاح دين، الجزائر: مكتبة رحاب، ط6، 1988م، ص19-20.

4- **الإسلام أرحم رسالة في تاريخ الإنسانية كله:** يقرر الشيخ الغزالي بأسلوب العالم والمفكر المنصف المتمكن من ناصية الحركة التاريخية واستيعاب خطوطها العريضة وتفصيلاتها الدقيقة أن الإنسانية في شتى مراحلها على ظهر البسيطة لم تعرف دينا ومنهجا إنسانيا كالإسلام، وأن ما تقول به جبهة بعض المبشرين والمستشرقين من تقولات ومفتريات إن هو إلا سخائم وأحقاد ينقلها بأمانة مقدسة الأسلاف للأخلاف، وهي روح متأججة على الدوام كما ظهرت على لسان **بطرس الناسك** وأمثاله من المتضاغنين على الإسلام ونبيه النبيل صلى الله عليه وسلم وأمته المسالمة؛ ونحن نرى الشيخ الغزالي في معرض دحضه لتلك الشبهات والمفتريات والأحقاد يلجأ أحيانا لأسلوب المقارنة بين طبيعة انتشار الإسلام وبين طبيعة انتشار النصرانية وإرهاب اليهودية؛ فالإسلام –كما لاحظ الغزالي بحق– اعتبر حق الحياة حقا مقدسا ولا جدال فيه، لأن الإنسان مكرم في منهج الله بغض النظر عن معتقده، في حين يرى الحاخام **(والدنبرج)** أن الشريعة اليهودية إذا طبقت وفق وصايا العهد القديم فلن يبقى في الأرض المقدسة (!) غير اليهود، ويذهب الحاخام **(هيس)** إلى ضرورة إبادة كل من يحاربون شعب الله المختار (!) مهما كانت أعراقهم وأجناسهم، بينما يرى الحاخام (أربيل) ان قتل غير اليهودي لا يعتبر في معايير شعب الله المختار جريمة، لأن حق الحياة لا يجب أن يكون مصونا سوى لليهود وحدهم![39]

ويعقد الشيخ الغزالي فصولا مسهبة للحديث عن تاريخ الاضطهاد الديني في النصرانية يكشف بها الفروق بينها وبين الإسلام في حرية الاعتقاد والتدين، وبعد اقتباسه عن **مخائيل** السوري لنص يثبت إصدار **هرقل** لقرار يقضي بتنصير جميع اليهود والسامريين المقيمين فوق أراضي الإمبراطورية الرومانية، يتساءل الشيخ: "ومن يدري لعل المستشرقين الطاعنين على الإسلام، والأقباط الذين يصدقونهم في مطاعنهم، هم من نسل أولئك اليهود الذين اقتادهم عسكر **هرقل** إلى الكنائس حيث نصّروهم رغم أنوفهم؟ ولو أن هذا الأمر المجنون هفوة حاكم فرد لما ساغ لنا أن نؤاخذ به تاريخ دين ما، لكن هذا الأمر قد سبق إلى مثله، وقلد في فعله باباوات وأباطرة وملوك، فإذا صدر سيق الناس بالسياط إلى حيث يعمدون، فإذا تجرأ أحد على عصيان أمر الدولة قطع عنقه (...) وعلى هذا النحو هلك المسلمون في الأندلس، وهلك من بعدهم الموحدون في

---

[39] محمد الغزالي: صرخة تحذير من دعاة التنصير، الجزائر: دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، 1412هـ/1992م، ص145.

أوروبا... والعجب أن الذين يهيلون التراب على هذه المآسي يجيئون من بعد إلى الإسلام النقي ليقولوا له: إنك انتشرت بالسيف!".[40]

كما نجد الشيخ الغزالي يؤكد الرؤى والانطباعات ذاتها في سياق رده على الكاتب المتحامل على الإسلام، الحاقد على تعاليمه وقيمه والذي أفرد الشيخ لنسف أباطيله المفتراه كتابه البديع "**التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام**"، يقول: "... لو كنا ممن يلجأ إلى حرب الإبادة ما ولد في بلاد الإسلام مثلك أيها الكاتب الكاثوليكي الحقود، لأن آباءك نالوا حق الحياة في العفو السمح الذي بذله عن طواعية المسلمون المنتصرون. ولو شاءوا أن يثأروا لمذبحة بيت المقدس لعمّروا القبور بجثث المجرمين الذين سبقوا بالغدر وقتلوا الآمنين"؛[41] ومن غير شك فإن الغزالي بجهوده الدؤوبة في الردود والمناقشات على هذه الجبهة إنما يهدف إلى إنصاف الإسلام من خصومه، وترسيخ قيم المنهج الإسلامي وسماته المتمثلة في الرحمة والعدل وتقدير الكرامة الإنسانية، في الذاكرة التاريخية المشتركة لبني البشر، صونا للحقيقة وحماية لها من الاندثار والتلاشي، وكأن الشيخ الغزالي يجعل من مستلزمات الشهادة على الخلق تقديم ضريبة لا مندوحة أبدا عنها، ولا مجال لتجاهلها أو التفريط فيها، هي الشرح والتبيين والحوار والمجادلة بالحسنى؛ ولا غرو في ذلك فإن تلك هي الوظيفة العتيدة الأولى الثابتة لرسالة الأمة الإسلامية بين شتات البشر وتجمّعاته؛ والشيخ الغزالي —كما يبدو هنا– حريص على تمثل هذا الدور الرسالة في منطلق واجب الشهادة وبواعث الحس النبيل والشعور الحضاري والإنساني الخير.

رابعا: مفاهيم ومرئيات مستنتجة

من المناسب الآن بعد هذه التشخيصات والتحليلات والعروض المختلفة والمساجلات النظرية والفكرية، أن ينصرف الجهد والنظر إلى استنتاج ما يأتي:

---

40 محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط3، 1348هـ/1965م، ص260-261. للتوسع أكثر في تاريخ الاضطهاد الديني المسيحي يمكن مراجعة فصل حقائق لا مندوحة عن ذكرها، وفصل بين ملوك النصرانية ومماليك الإسلام، في هذا المصدر ذاته.

41 المرجع نفسه، ص291-292.

1- تماهي فهم الشيخ الغزالي وتناغمه مع اتجاه القرآن إزاء حقيقة تأسس الإسلام على مبدأ السلام، وعدم مبادأته للقتال مع الخصوم من المشركين ونحوهم، ذلك أن أول آية نزلت في الجهاد بعد الهجرة تؤكد أن الجماعة المؤمنة قد اعتدي عليها، ولم تكن هي التي بدأت بالقتال، والسياق واضح في ذلك... قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج:39).

2- إن ما يقرره الشيخ الغزالي من كون الجهاد في الإسلام لا يكون إلا تقليما لأظافر الطغاة الجبابرة أو قمعا للفتنة وحماية للحقوق المستباحة، وأن الأصل في هذا الدين هو السلم والأمان، إنما هو حقيقة تاريخية وعلمية معضدة بالأدلة القطعية وإثباتات الوقائع التاريخية المؤكدة، فإن قريشا هي التي طاردت الجماعة المؤمنة الأولى وفتنتها عن دينها وعقيدتها واستباحت حقوقها المدنية المشروعة، وكذلك الأمر بالنسبة لليهود في المدينة، فهم بدأوا المسلمين بالكيد ومظاهرة غطفان والأعراب المستهزئين بالإسلام والدعوة، كما نقضوا العهود والمواثيق المبرمة بينهم وبين المسلمين؛ كما أن القتال مع الفرس والروم لم تشبه شبهة الإكراه الديني، ولكنه كان من أجل الحرية وتمكين الجماهير من سماع الحق واختيار العقائد التي ترتاح إليها دون أن تتعرض لفتنة أو تضييق أو مصادرة لحقوقها.

3- كل الأدلة والأنظار الحصيفة تتضافر على تأكيد أهمية فهم الشيخ الغزالي لموضوع النسخ في الكتاب العزيز، فإن الشيخ لا يعتقد به أصلا، وهو في نفيه له يثير هذا التساؤل "هل في القرآن آيات معطلة الأحكام، بقيت في المصحف للذكرى والتاريخ كما يقولون، نقرأ التماسا لأجر التلاوة فحسب، وينظر إليها كما ينظر إلى التحف الثمينة في دور الآثار... غاية ما يرجى من المحافظة عليها إثبات المرحلة التي أدتها في الماضي أما الحاضر والمستقبل فلا شأن لها بهما؟".[42] ويزداد نفي الغزالي للنسخ قوة في مجال الدعوة إلى الله ودينه الحق، فإن الأدوية تبقى ما بقيت العلل والأدواء المرصدة لها، لا أحد من العقلاء ادعى بأن العلل والظواهر التي تصدى القرآن لعلاجها أول الأمر قد انتفت، وإذا كان القرآن المدني نفسه بل أواخر التنزيل لا توجد به إشارة واحدة على إرغام أحد على الإيمان فكيف يجوز بعد ذلك التسليم بنسخ آيات الدعوة؟ فإن "الكتاب العزيز قد تناول المعارضين له والكافرين به بأساليب شتى ليس من بينها قط إرغام أحد على قبول

---

42 محمد الغزالي: نظرات في القرآن، الجزائر: دار الشهاب، 1986م، ص228.

الإسلام وهو عنه صاد... كل ما ينشده الإسلام أن يعامل في حدود النصفة والقسط، وألاّ تدخل عوامل الإرهاب في صرف امرئ انشرح صدره به. ولم يكن على الإسلام من بأس ولن يكون عليه بأس أبدا لو أصر ألوف المنتسبين إلى الأديان الأخرى على البقاء في معتقداتهم... فقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون:6)، وقوله تعالى: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: 41)... هذه الآيات وأمثالها مما ورد في القرآن الكريم هي التي ظلت تتردد في أواخر العهد المدني، ويخاطب بها كل إنسان، فالإسلام لم يفرض على النصراني أن يترك نصرانيته، أو على اليهودي أن يترك يهوديته، بل طالب كليهما –ما دام يؤثر دينه القديم– أن يدع الإسلام وشأنه، يعتنقه من يعتنقه، دون تهجم مر أو جدل سيء".[43] ويفهم من هذا كله أن الشيخ الغزالي يأبى القول بالنسخ، يرفض أن تكون آيات الجهاد والقتال قد نسخت الدعوة وأصولها، فالقرآن كله —في نظر الشيخ– محكم إلى يوم القيامة والحساب.

4– تتضح وجاهة نقد الشيخ الغزالي للذين ادعوا أن الإسلام انتشر بالسيف، أي بالإكراه لا بالإقناع، إذا عرفنا أن أكبر التجمعات الإسلامية على ظهر الأرض، توجد في الأقطار التي دخلها الإسلام عن طريق الدعاة والتجار المسلمين فحسب، مثل إندونيسيا والهند ونيجيريا، بينما يقل نسبيا عدد المسلمين في الأقطار التي اشتبك فيها الفاتحون المسلمون –مضطرين– مع الوثنية والفرس والروم.[44]

5– إن المستشرقين والمبشرين –كما لاحظ الشيخ الغزالي بحق– ممن ينسبون الدماء والعدوان للإسلام وحضارته، إنما هم مغرضون لا ينطلقون في أحكامهم من العقل والمنطق، بل من الأحقاد التاريخية والصليبية، فإن عدد القتلى في جميع الغزوات الإسلامية لا يساوي شيئا جديرا بالذكر مقارنة بالقتلى في الحروب العالمية الحديثة وضحايا الدمار الاستعماري الغربي الحديث والمعاصر.[45]

---

43 المرجع السابق نفسه، ص254.

44 عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، بيروت/صيدا: المكتبة العصرية، ص232.

45 أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، مرجع سابق، ص325. للشيخ الغزالي حديث مهم جداً حول التحقيق في هذا الموضوع، وهو حديث ينبغي أن يرسخ صورة مشرقة للإسلام وحضارته في الذاكرة الإنسانية. الاستعمار أحقاد وأطماع، مرجع سابق، ص127–128.

6- أرى أن الرؤية التي يقدمها الشيخ الغزالي في موضوع طبيعة انتشار الإسلام تشكل انعكاسا متقدما ونفيسا لجملة من الخطوط العريضة والمرتكزات الهامة لإمكان صياغة نظرية إسلامية في العلاقات الدولية، وإعادة ضبط مفردات هذه النظرية مثل الجزية ودار الحرب[46] في ضوء الأهداف والمقاصد الشرعية ومتغيرات الزمان، وتكييف هذه الجهود الفقهية والفكرية والسياسية والحضارية لخدمة قضايا الإسلام ودعم مستقبل هفي العالم الإنساني.[47]

---

46 محمد الغزالي، الطريق من هنا، مرجع سابق، ص80.

47 انظر محمد أبوزهرة: العلاقات الدولية في الإسلام، القاهرة: دار الفكر العربي، خاصة فصل العلاقات الدولية في حال السلم، ص47، وفصل العلاقات الدولية في وقت الحرب، ص89.